(٢)

الصداقة والخصومة

واثرهما فى الحياة والأدب

للأستاذ عبد الوهاب عزام الخطيب

١٦

تكلم أرسطو عن الصداقة فأوضح أنها ضرورية لحياة الانسان وأبان أهميتها للفرد وأهميتها السياسية وأنها شريفة كما هى ضرورية .

يقول أرسطو الصداقة هى ضرب من الفضيلة وهى فوق ذلك إحدى الحاجات الأشد ضرورة للحياة لأنه لاأحد يقبل أن يعيش بلا أصدقاء ولو كان له مع ذلك كل الخيرات . كل الناس على وفاق فى أن الاصدقاء هم الملاذ الوحيد الذى يمكننا الاعتصام به فى البؤس وفى الشدائد المختلفة الأنواع فحينما نكون شبابا نطلب إلى الصداقة أن تعصمنا من الزلات بنصائحها . وحينما نصير شيوخا نطلب اليها عنايتها ومساعدتها التى تقوم مقام نشاطنا حيث ضعف السن يجلب علينا كثيرا من أنواع الخور وأخيرا حينما نكون فى كل قوتنا نعتمد عليها لنتم بها بهاء أعمالنا .

بل قد يمكن القول بأن الصداقة هى رابطة الممالك وأن الشارعين يشتغلون بها أكثر من اشتغالهم بالعدل نفسه . ان وفاق الأهالى ليس عديم الشبه بالصداقة وان هذا الوفاق هو ماتريد جميع القوانين استقراره قبل كل شىء كما تريد قبل كل شىء نفى الشقاق الذى هو أضر عدو للمدنية . متى أحب الناس بعضهم بعضا لم تعد حاجة إلى العدل غير أنهم مهما عدلوا فانهم لاغنى لهم عن الصداقة .

الصداقة ليست فقط ضرورية ولكنها فوق ذلك جميلة وشريفة أننا نمدح أولئك الذين يحبون أصدقاءهم لأن المحبة التى يوليها المرء أصدقاءه يظهر لنا أنها احساس

من أجل الاحساسات التى يشعر بها قلبنا بل كثير من الناس يشتبه عليهم لقب الرجل الفاضل بلقب الرجل المحب .

— ١٧ —

بين أرسطو بعد ذلك أسباب الصداقة وفرق بينها وبين العطف ثم قسمها إلى ثلاثة أنواع وقارن بينها مقارنة محكمة فقال : —

بديهى أن كل شىء لا يمكن أن يكون محبوبا فالانسان لا يحب إلا الشىء القابل لأن يحب أى الخير أو الملائم أو النافع وبالنتيجة ضروب الحب والصداقات التى تشبهها يجب أن تختلف كذلك . وعلى ذلك يوجد ثلاثة أنواع من الصداقة تقابل فى العدد الأسباب الثلاثة للمحبة وهى صداقة الفضيلة وصداقة اللذة وصداقة المنفعة وبالنسبة لكل واحدة منها يجب أن يوجد تبادل حب لا يبقى مستورا عن واحد ولا عن الآخر من أولئك الذين يجدونه .

نعم تسمى عطوفة تلك القلوب التى تريد الخير للغير ولو لم تقابل بالمثل من ناحية ذلك الذى نحبه فاذا كان العطف متبادلا وجب أن يعتبر كالصداقة وقد يقع أن يعطف الانسان على أناس لم يكن رآهم أبدا ولكنه يفرض أنهم طيبون أو أنه يمكن أن يكونوا نافعين ويلزم لأجل أن يكونوا أصدقاء حقا أن يكون لديهم بعضهم لبعض احساسات العطف وأن يريدوا الخير بعضهم لبعض وألا يجهلوا الخير الذى يتعاوضون إرادته لسبب من الأسباب .

حقا ان الصديقين لا يكونان صديقين إلا بعد أن يحس كلاهما بادىء الأمر بعطف نحو الآخر لكن لا يكفى أن يكون بالمرء عطف ليكون محبا بل يقصر الامر على أن يتمنى المرء الخير لأولئك الذين يحس نحوهم بالعطف من غير أن يكون مع ذلك مستعدا لأن يعمل لهم أى شىء . ويمكن أن يقال أن العطف متى استطال مع الزمان ووصل إلى أن يكون عادة صار صداقة حقة .

والفرق بين العطف والصداقة أن العطف قد يكون فجائيا متولدا عن احساس سطحى أما الصداقة فتمتاز بالعمق والبقاء والعطف قد يكون نحو أناس بعيدين عنا كل البعد بل نحو أناس لم نرهم فى حياتنا مرة واحدة أما الصداقة فانها كالحب

تبتدىء بلذة النظر أو السمع لأنه إذا لم يعجب المرء رواء الشخص أو حديثه لا يمكنه أن يحبه ولا يكون من الحب إلا متى أسف المرء على غيبة شخص ورغب فى حضرته والعطف تثيره الفضيلة واستحقاق كيفما اتفق كلما ظهر شخص لآخر بمظهر الشرف أو الشجاعة أو الأريحية أو أى كيف من هذا القبيل والصداقة يولدها الخير واللذة والمنفعة .

— ١٨ —

الناس المتحابون يريدون الخير بعضهم لبعض فى نفس معنى السبب الذى هم به متحابون فالذين يحب بعضهم بعضا للمنفعة يتحابون لا لذواتهم بالضبط ولكن من جهة أنهم يصيبون خيرا ما وكسبا ما من علاقاتهم المتبادلة ومتى أحب الانسان بالفائدة وللمنفعة فانه لا يطلب فى الحقيقة إلا خيره الشخصى ولا يحب من يحبه من أجل صفاته الممتازة بل من أجل كونه نافعا .

الصداقة بالمنفعة يشبه أن تتولد على الخصوص من المفارقة مثلا بين الفقير والغنى بين الجاهل والعالم كما لو نقص المرء شىء فهو مستعد لتحصيله بأن يعطى شيئا آخر عوضا له وهى خليقة بنفوس التجار وتوجد على وجه أخص فى الناس المسنين فان الشيخوخة إنما تطلب ماهو نافع ليس غير والمنفعة يمكن أن تسبب الصداقة بين الاشرار كما يمكن أيضا أن تربط الاخيار برابطة الصداقة مع الاراذل فتصير أولئك الذين ليسوا من هؤلاء ولا من هؤلاء أصدقاء للأولين أو للآخرين بلا تمييز ونلاحظ أن أفلاطون قد صرح أن الصداقة لا تأتى بين الأشرار بعضهم وبعض ولا بينهم بين الاخيار فاذا اضفنا الى ذلك أن أرسطو يعتبر هذه الصداقة عرضية وبالواسطة وليست غير ذات نسبة إلى الصداقة بالفضيلة أمكن القول بأن الفيلسوفين العظيمين قد التقيا فى هذه النقطة .

لا حاجة بالمرء إلى كثير من الاصدقاء النافعين لأنه من الصعب عليه أن يدفع المقابل ويعترف بجميل جميع صنوف المعروف متى كان ما يبدى اليه كثيرا وقد لا تكفى الحياة بأسرها لهذا الغرض أن أصدقاء أكثر عددا مما يلزم للحاجات العادية للحياة لا فائدة منهم بل قد يصيرون عائقا للسعادة .

الشكاوى والمعاتبات لاتحصل إلا فى الصداقة بالمنفعة وحدها أو بعبارة أخرى إنما تحصل أكثر مايكون فى هذه الصداقة فانه نظرا إلى أن الصديقين لايرتبطان إلا لمنفعة فانه لكليهما دائما حاجة إلى أكثر مما له ويتصور أنه يأخذ أقل مما ينبغى فيشتكى حينئذ من أنه لم يجد كل مايرغب وكل ما كان يظن أنه يستحقه حقا وعدلا

ان الصداقات من هذا النوع تنقطع بغاية السهولة لأن هؤلاء الذين يزعمون أنفسهم أصدقاء لايثبتون طويلا مشابهين لانفسهم ومتى صار الاصدقاء غير نافعين انقطع حبهم حالا أن النافع أو المفيد لاثبات له بل هو يتغير من لحظة إلى أخرى على أتم وجه وإذا انعدم السبب الذى صيرهم أصدقاء انعدمت الصداقة أيضا مع الصلة الوحيدة التى كانت كونتها .

— ١٩ —

والذين يحب بعضهم بعضا للذة لايتحابون لذواتهم بالضبط أيضا بل من جهة أنهم ينالون سرورا أو يدفعون ألما من جراء هذه الصداقة فاذا أحبوا الناس أولى الاخلاق السهلة فما ذلك بسبب خلق هؤلاء الناس نفسه بل لاجل اللذة التى يجلبها لهم هؤلاء الاشخاص ليس غير .

أهل الثراء يبتغون أصدقاء اللذة وإذ يفكرون فى لذتهم لايبغون إلا أناسا محبوبين هينين أو أناسا حذاقا مستعدين دائما أن ينفذوا مايؤمرون به والمساواة بين الطرفين شرط فى انعقاد مثل هذه الصداقة .

الصداقة باللذة هى أشبه بالصداقة الصحيحة متى كانت الظروف التى تولدها هى واحدة من جانب ومن آخر وان يسر كلا الصديقين بصديقه وأن يعجبهما لهو واحد وهذا هو الذى يوجد صداقات الشبان لأنه على الخصوص فى هذه الصداقات يكون السخاء وكرم القلب ولكن يلاحظ أنه مع تقدم السنين تتغير اللذات وتصير غير ما كانت بالمرة لهذا يعقد الشبان علاقاتهم بغاية السرعة وينقضونها بسرعة لاتقل عن الاولى . ان الصداقة تتغير مع اللذة التى كانت ولدتها وأن تغير هذه اللذة سريعان مايكون .

يمكن أن توجد اللذة صداقة بين الأشرار بعضهم وبعض وهنا تتحول اللذة

إلى شرور وآثام لا قبل للمجتمع باحتمالها وسرعان ما ينقلب الصديقان بعضهم لبعض عدواً وكما اعتبر أرسطو صداقة المنفعة عرضية وبالواسطة اعتبر صداقة اللذة عرضية وبالواسطة

لامحل للمنازعات فى الصداقة باللذة لأن كلا من الصديقين له ما يرغب فيه على السواء إذا لم يريدا إلا اللذة العيشة معاً ومن السخريه كل السخرية أن يلوم أحدهما صديقه على كونه لا يلذ بهذه العشرة لأنه يمكن بغاية السهولة أن يتقطع عن العيشة معه .

— ٢٠ —

الصداقة الكاملة هى صداقة الناس الذين هم فضلاء والذين يتشابهون بفضيلتهم لأن اولئك يريدون الخير بعضهم لبعض من جهة أنهم أخيار اولئك الذين لا يريدون الخير لأصدقائهم إلا لهذه الأسباب الشريفة هم الأصدقاء حقا اولئك بأنفسهم بطبعهم الخاص لا بالغرض يكونون على هذا الاستعداد السعيد ومن ثم يجيء أن صداقة هذه القلوب الكريمة تبقى ما بقوا هم أنفسهم أخيارا وفضلاء

يمكن أن يقال أنهم فوق ذلك نافعون بعضهم لبعض ويمكن أن يزاد أيضا أنهم ملائمون بعضهم لبعض إذا كانوا أرضياء على الاطلاق

فى هذه الصداقة توجد الفضيلة وتوجد المنفعة وتوجد اللذة لذة الملاءمة وحينئذ فلا شيء فى الدنيا أحب من هذا إنما توجد الصداقة غالبا بين الأشخاص الذين هم على هذه الأهلية وهى فيهم أكمل ما تكون

على أن من المفهوم بالبداهة أن تكون الصداقات بمثل هذا النبل نادرة جدا لان الناس الذين هم على هذا الخلق أيضا قليل جدا ولعقد هذه العلاقات يلزم زيادة على ذلك الزمان والعادة وبعض الشروط الأخرى

— ٢١ —

وأنت تعتبر صديقا ذلك الذى يريد لك الخير إن ظاهرا وإن حقا وبفعله معك وهو يقصد به قصدك ليس غير وكذلك هذا الذى لا يرغب فى حياة صديقه وسعادته

إلا من أجل هذا الصديق ذاته وقد يقال ايضا أن الصديق هو ذلك الذى يعيش معك والذى يتحد وإياك فى الأذواق والذى تسره مسراتك وتحزنه أحزانك

وأهم ميز للأصدقاء هى المعيشة المشتركة فمتى كان المرء فى العسر رغب فى هذه المعيشة لما يصيبه فيها من المنفعة ومتى كان فى اليسر رغب فيها من أجل السعادة لقضاء أيامه مع الذين يحبهم ولا شىء أقل موافقة للأصدقاء من العزلة أن العمل الذى يجعله المرء قوام حياته الخاصة أو الذى يجد فيه أكبر لذة هو أيضا ذلك الذى يريد كل واحد أن يشاطره فيه أصدقاؤه وهو يعيش معهم على ذلك فالبعض يأكلون ويشربون معا وآخرون يصطادون معا وآخرون يروضون أنفسهم معا على دروس الفلسفة وعلى جملة من القول كلهم يقضون أيامهم فى أن يباشروا معا ما هو الذ لهم فى المعيشة .

على أنه فى الأحوال التى تكون فيها المسافة بين الأشخاص بعيدة جدا من جهة الفضيلة أو من جهة الرذيلة أو من جهة الثروة أو من جهة أى شىء آخر لا يمكن أن توجد الصداقة بمعناها الصحيح بل قل أن تنعقد ويمكن أن يشاهد هذا بالنسبة للملوك فان الانسان هو أنزل منهم فى أمر الثروة الى حد أنه لا يستطيع حتى أن يريد أن يكون صديقهم كما أن الناس الذين ليس لهم مكانة لا يفكرون فى إمكان صيرورتهم أصدقاء للرجال الاعلين والأحكمين .

متى كان الصديقان متساويين لزم بمقتضى هذه المساواة نفسها أن يكونا متساويين فى المحبة التى يحملانها وفى سائر الباقى ولكن متى كانا غير متساويين فلا يبقيان صديقين إلا بمحبة يجب أن تكون متناسبة مع تفوق أحد الاثنين

ولما كانت الصداقة منحصرة أكثر فى أن يحب المرء من أن يكون محبوبا وكان الناس الذين يحبون أصدقاءهم فى أعيننا حقيقين بالمدح يظهر أن الحب يجب أن يكون هو الفضيلة الكبرى للأصدقاء ويتتج أنه كلما كانت المحبة تبنى على الاستحقاق الشخصى لكل واحد من الصديقين كان الأصدقاء أوفياء وكانت علاقاتهم متينة وباقية .

— ٢٢ —

خاصة الناس الفضلاء أن يقوا أنفسهم من الخطايا وأن يعرفوا وقت الحاجة أن يوقفوا خطايا أصدقائهم وذلك فيما يظهر أنبل عمل تستمر به الفضيلة مع الاصدقاء فى أبهى حلاها .

والرجل الفاضل يعمل كثيراً من الأشياء لأصدقائه ولوكلفه ذلك فقدان الحياة أنه يحمل أمر الأقوال والكرامات وعلى جملة من القول كل هذه الخيرات التى يتنازع فيها العامة غير مستبق لنفسه الاشرف عمل الخير أنه يفضل كثيرا استمتاعا حاداً ولو لم يدم إلا بعض لحظات على استمتاع بارد يبقى زمانا أطول يؤثر أن يعيش فى المجد سنه واحدة على أن يعيش فى الخمول سنين عديدة يؤثر عملا واحدا جميلا وعظيما على طائفة من الأعمال العاميه ذلك هو بلا شك ما يدفع اولئك الرجال الكرام إلى إلى أن يضحوا بحياتهم عندما يلزم أنهم يستبقون لانفسهم أشرف نصيب وأجمله ويتزلون عن ثروتهم مع الارتياح اذا كان خرابهم يمكن أن يغنى أصدقاءهم فللصديق الثروة وأما هو فله الشرف وهو أعظم منها مائة مرة ومن باب أولى يكون شأنه كذلك بالنسبه للكرامات وللسلطان فان رجل الخير يترك كل ذلك الى صديقه لان هذه النزاهة هى وحدها فى عينه الجميلة والجديرة بالثناء .

وينبغى أن يطالع المرء أصدقاءه التعساء دون أن يدعى الى ذلك ودون أن يحركه لذلك الا حركة قلبه لان واجب الصديق هو أن يسدى المعروف الى أصدقائه وعلى الخصوص متى كانوا فى حاجة اليه ولا يطلبونه هذا اجمل بالصديقين وأحلى لها ومتى استطاع لزمه دائما أن يؤدى على حسب الاحوال كل ما قد قبل من أصدقائه وأن يبرىء ذمته من الديون التى استدانها سواء كانت مادية أم أدبية وأن تكون نيته السليمة هى الدافع له على هذا الاداء وعليه فى كل مناسبة أن يمنح أصدقاءه صنوف الرعاية الواجبة لهم بكل صراحة واخلاص

— ٢٣ —

تعرض أرسطو بعد ذلك لمسألة شائكة وهى قطع الصداقات فتساءل عما اذا

كانت علاقات الصداقة يجب أن تقطع أو أن يحتفظ بها حينما يصيح الناس اغيار ما كانوا بعضهم نحو البعض الآخر أم أنه لاشيء من الضرر فى القطع حين يصير الناس الذين لم يكونوا ليتحابوا الا بواسطة المنفعة أو اللذة لم يبق عندهم ما يؤتونه بعضهم بعضا. لما كان هذا موضوع صداقتهم الوحيد كان واضحا كل الوضوح أن ينقطع تحابهم وكل ما يمكن أن يشتكى منه هو ان واحدا لا يحب الا بالمنفعة أو باللذة يوهم مع ذلك أنه يحب حبا قلبيا وحينئذ متى انخدع احد الاثنين وافترض انه محبوب بالقلب فى حين أن الآخر لم يفعل شيئا يعطيه هذا الفهم لا ينبغى له ان يلوم الا نفسه لكن اذا انخدع بموارية صديقه المزعوم فله كل الحق فى أن يشكو من خادعه.

ولنفرض الحالة التى عقدت فيها العلاقة مع رجل بسبب أنه كان قد ظن طيبا وأنه بعد ذلك قد صار رذيلا أو أنه بحسب الظاهر فقط قد صاره. فهل يستمر المرء فى أن يحبه؟ هل يلزم القطع على الفور؟ أم هل يجب التفصيل وأن يقطع لا مع الجميع ولكن مع أولئك الذين قد صار فساد أخلاقهم منذ الآن عضالا مادام هناك أمل فى اصلاحهم فينبغى مساعدتهم على نجاة فضيلتهم بعناية تفوق العناية التى تبذل لاصلاح ثروتهم لأن تلك الخدمة هى أشرف وأحق بالصداقة الحقة. فى هذه الحالة لا خطأ على المرء فى أن يقطع لأنه لم يكن هذا هو الرجل الذى أريد اتخاذه صديقا ومذ تغير هكذا تغيرا تاما ولم يبق بعد فى الامكان نجاته برده الى ما كان فما على الانسان إلا أن يبتعد عنه.

افرض أيضا حالة أخرى أن يبقى أحد الصديقين ما كان والآخر بصيرورته أشد ميزة من الجهة الاخلاقية وصل إلى أن يفوقه بكثير فى الفضيلة فهل يجب على هذا أن تستمر صداقته؟ أم هل هذا شيء غير ممكن؟ وتصير الصعوبة واضحة كل الوضوح متى كانت المسافة بين الصديقين كبيرة جدا كما يقع فى الصداقات المعقودة منذ الطفولة فاذا بقى أحدهما طفلا بعقله وقد صار الآخر رجلا مليئا بالقوة والكفاءة، فكيف يمكن أن يبقيا صديقين ما دام أنهما لا تروقهما بعد الاشياء بعينها ولم يكن لاحدهما بعد ما للاخر من الافراح والاتراح بعينها لن يكون

بينهما بعد تبادل الاحساسات التى بدونها لاصداقة ممكنة. ولكن أليس من المعاملة القاسية أن تكون معه كما لو لم يكن صديقك أبدا؟ أم ينبغى بالاولى الاحتفاظ بذكرى الصداقة التى أحيها المرء فى الماضى كما أن الانسان يعتقد واجبا عليه أن يكون أشد عطفا على أصدقائه منه على الاجانب كذلك يجب أن يحابى بعض الشىء ذلك الماضى الذى شهد ارتباطهم الا أن يكون القطع مع ذلك قد جاء من افراط فى فساد لايغتفر

— ٢٤ —

يفرغنا مما نحن فى حاجة اليه من نظرية الصداقة عند أرسطو ويمكننا أن نقول كما قال سانتهلير انه استوعب هذا الموضوع الواسع من جميع جهاته بحذق وسعة نظر لايكادان يتركان بعده تعقيبا لمعقب ولا زيادة لمستزيد وانه يكون من الظلم اغفال مابهذه النظريات من السمو ومن الحقيقة العملية فان كل مايقوله أرسطو حقيق بالذكر والتنبيه يسير علينا أن نظن أن هذه الايضاحات الخاصة بالاخلاق الاجتماعية لم تكن معروفة عند الاقدمين وأن نسندها إلى أزمنة متأخرة لنرضى مابنا من ميل للفخر .ولكننا يرى عند قراءة أرسطو أن هذا ضلال بعيد ، ان الفلاسفة قد كانوا التراجمة الامناء لجميع الاحساسات التى يلهمنا الطبع اياها والتى لم يقررها القانون إلا بعد الابحاث الفلسفية بزمان طويل .

— ٢٥ —

أما بيدبا فيلسوف الهند وحكيمها فقد عرض للصداقة بين فصول كتابه الخالد «كليلة ودمنة» ومسها مسا لطيفا مقبولا فى أسلوب رائع جذاب وضرب المثل تلو تلو المثل لهذه الروابط الاجتماعية الخطيرة فى براعة منقطعة النظير

فباب الاسد والثور مثل لمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال حتى يحملها على العداوة والبغضاء.

وباب الحمامة المطوقة مثل لاخوان الصفاء كيف يبتدىء تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض

وباب البوم والغربان مثل للعدو الذى ينبغى ألا يغتر به وان أظهر تضرعا وملقا

وباب الجرذ والسنور مثل لرجل كثر أعداؤه وأحد قوابه من كل جانب فأشرف على الهلاك فالتمس النجاة والمخرج بموالاة بعض أعدائه ومصالحته فسلم من الخوف وأمن ثم وفى لمن صالحه منهم .

وباب الاسد والشغير الناسك مثل ذلك الذي يراجع من أصابته منه عقوبة من غير جرم أو جفوة من غير ذنب

ومن سوء الذوق الادبي أن أحاول تلخيص هذه الابواب وكل ما أستطيع عمله أن أجمع ماتفرق في ثنايا الكتاب مما نحن بصدده من ضروب الاخلاق الخاصة بالصداقة .

تعرض بيدبا الاشخاص الذين ينبغي للانسان أن يصاحبهم ولاولئك الذين ينبغي أن يبتعد عنهم فقال « الزم ذا العقل وذا الكرم واسترسل اليهمـــا وإياك ومفارقتهما ،واصحب الصاحب اذا كان عاقلا كريما او عاقلا غير كريم فالعاقل الكريم كامل والعاقل غير الكريم أصحبه واحذر من سوء اخلاقه وانتفع بعقله والكريم غير العاقل الزمه ولا تدع مواصلته وانتفع بكرمه وانفعه بعقلك. والفرار كل الفرار من اللئيم الاحمق »

ومن الناس لاينبغي تركه على حال من الاحوال وهو من عرف بالصلاح والكرم وحسن العهدة والشكر والوفاء والمحبة للناس والسلامة من الحسد والبعد من الاذى والاحتمال للاخوان والاصحاب وان ثقلت عليه منهم المئونة .

أن صحبة الاخيار تورث الخير كالريح اذا مرت بالطيب حملت طيبا وصحبة الاشرار تورث الشر وربما أورثت صاحبها سوء ظن بالاخيار وشر الاخوان الخاذل لاخيه عند النكبات والشدائد وشر منه من التمس منفعة نفسه بضر اخيه ومن كان غير ناظر له كناظره لنفسه او كان يريدان يرضيه بغير الحق لاجل اتباع هواه وكثيرا مايقع ذلك بين الاخلاء .

— ٢٧ —

ويبدبا يقسم الصداقة تارة الى صداقة نفس وصداقة يد .وتارة الى صداقة طواعية وصداقة اضطرار فيقول:ان اهل الدنيا يتعاطون فيما بينهم امرين ويتواصلون عليهما وهما ذات النفس وذات اليد فالمتبادلون ذات النفس هم الاصفياء واما المتبادلون ذات اليد فهم المتعاونون الذين يلتمس بعضهم الانتفاع ببعض ومن كان يصنع المعروف لبعض منافع الدنيا فانما مثله فيما يبذل ويعطى كمثل الصياد والقائه الحب للطير لايريد بذلك نفع الطير وانما يريد نفع نفسه فتعاطى ذات النفس افضل من تعاطى ذات اليد

ويقول : ان الصديق صديقان : طائع ومضطر وكلاهما يقتسمان المنفعة ويحترسان من المضرة فأما الطائع فيسترسل اليه ويؤمن فى جميع الاحوال واما المضطر ففى بعض الاحوال يسترسل اليه وفى بعضها يتحذر منه

وهناك صداقة ظاهرة باطنها عداوة كامنة. وهى اشد من العداوة الظاهرة ومن لم يحترس منها وقع موقع الرجل الذى يركب ناب الفيل المغتلم ثم يغلبه النعاس فيستيقظ تحت فراسن الفيل فيدوسه فيقتله وانما سمى الصديق صديقا لما يرجى من نفعه وسمى العدو عدوا لما يخاف من ضرره والعاقل اذا رجا نفع العدو اظهر له الصداقة واذا خاف ضر الصديق اظهر له العداوة وفى الحالة الاولى ينطبق بيت المتنبى

ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى عدواً له ما من صداقته بد

— ٢٨ —

ويتحدث بيدبا عن حلاوة الصداقة وما يجب على الصديق لصديقه فيقول .

لاشىء من سرور الدنيا يعدل صحبة الاخوان ولا غم فيها يعدل البعد عنهم وان اولى اهل الدنيا بشدة السرور من لا يزال ربعه من اخوانه واصدقائه من الصالحين معمورا ولا يزال عنده منهم جماعة يسرهم ويسرونه . ويكون من من وراء امورهم وحاجاتهم بالمرصاد والرجل ذو الرأى يعرف حال صاحبه وباطن امره مما يظهر له من دله وشكله والعاقل لا يعدل بالاخوان شيئا فالاخوان هم الاعوان على الخير كله . والمواسون عند ما ينوب من المكروه . ومن عاش ذا مال وكان ذا فضل وافضال على اهله واخوانه . فهو وان قل عمره طويل العمر

وعلى العاقل ألا يكتم صاحبه نصيحته وان استقلها وألا يكون كلامه كلام عنف وقسوة بل كلام رفق ولين فاذا أخبره ببعض عيوبه لا يصرح بحقيقة الحال بل يضرب له الامثال ويحدثه بعيب غيره فيعرف عيبه فلا يجد صاحبه الى الغضب عليه سبيلا وخير الاخوان والاعوان أقلهم مداهنة فى النصيحة .

ومن لم يقبل من نعمائه مايثقل عليه مما ينصحون له به لم يحمد رأيه كالمريض الذى يدع مايبعث له الطبيب ويعمد إلى مايشتهيه .

— ٢٩ —

وهناك حالات تتعرض فيها الصداقة للمحنة لم تغب عن بيدبا كما لم تغب عن عن أرسطو وكما كان لصداقة الفضيلة فى نظر أرسطو صفة الدوام تقريبا كذلك كان لصداقة الصالحين فى نظر بيدبا مثل هذا الصفة أن العقلاء الكرام لايبتغون على معروف جزاء والمودة بين الصالحين سريع اتصالها بطىء انقطاعها ومثل ذلك مثل الكوز من الذهب بطىء الانكسار سريع الاعادة حين الاصلاح ان أصابه ثلم أو كسر والمودة بين الاشرار سريع انقطاعها بطىء اتصالها ومثل ذلك مثل الكوز من الفخار سريع الانكسار ينكسر من أدنى عيب ولا وصل له أبدا والكريم يود الكريم واللئيم لايود أحدا إلا عن رغبة أو رهبة .

ومهما يكن من شىء فان الظروف قد تدعو الى تغير القلوب والمودة والعداوة لاتثبتان على حالة واحدة أبدا وربما حالت المودة الى العداوة وصارت العداوة ولاية وصداقة ولهذا حوادث وعلل وتجارب وذو الرأى يحدث لكل مايحدث لذلك رأيا جديدا أما من قبل العدو فبالباس وأما من قبل الصديق فبالاستئناس .

فاذا دخل قلب الصديق من صديقه ريبة فليأخذ بالحزم فى التحفظ منه وليتفقد ذلك فى اخطائه وحالاته فان كان مايظن حقا ظفر بالسلامة وان كان باطلا ظفر بالحزم ولم يضره ذلك .

ولعمرى مايستطيع أحد أطال صحبه صاحب أن يحترس فى كل شىء من أمره ولا أن يتحفظ من أن يكون منه صغيرة أو كبيرة يكرهها صاحبه ولكن الرجل ذا العقل وذا الوفاء إذا سقط عنده صاحبه سقطة نظر فيها وعرف مبلغ خطئه عمدا كان أو خطأ ثم ينظر هل فى الصفح عنه أمر يخاف ضرره وشينه فلا يؤاخذ صاحبه بشىء يجد فيه الى الصفح عنه سبيلا .

غير أنه من أعجب العجب أن يطلب الرجل رضا صاحبه ولا يرضى وأعجب من ذلك أن يلتمس رضاه فيسخط فاذا كانت الموجدة عن علة كان الرضا موجودا والعفو مأمولا. وان كانت عن غير علة انقطع الرجاء. لان العلة ان كانت الموجدة فى ورودها كان الرضا مأمولا فى صدورها وهنا ينطبق بيت العباس بن الاحنف :

لكن ملت فلم تكن لى حيلة صد الملول خلاف صد العاتب

ومن اتخذ صديقا وقطع أخاه وأضاع صداقته حرم ثمرة اخائه وأيس من نفعه الاخوان والاصدقاء.

عبد الوهاب عنانى الخطيب